محمد تقي الدين الهلالي: حياته وشعره

MUHAMMED TAQI UDDIN AL HILALI: HIS LIFE & POETRY

ناصرالدين محمد أنور*

ABSTRACT:

This research article deals with the life and works of Taqi Uddin Al Hilali in Arabic poetry; He is a well-known writer as well as a poet in the history of Arabic literature in Arab worlds. He spent his life for promotion of Arabic literature in various countries like Moracco, Iraq, India, Saudi Arabia and Egypt. He talked about many topics, different events, important explanations, beneficial instructions, useful guidance in his poetry. In this research paper, we discussed some topics and objectives that are found in his poetry such as praise, satire, pride, description, mourning, complaint, calling to Allah, colonialism and freedom, issues of the Muslim community and Islamic worlds. We explained all these topics, in the light of many verses and examples, focusing on his poetry book "Minhatul Kabeer Al Mutali Fi Sher - e Wa Akhbar - e Muhammed Taqi Uddin Al Hilali".

KEYWORDS: Al- Hilali, Life, Poetry. Praise, Satire, Description, Mourning.

الكلمات المفتاحية: الهلالي، الشعر، المدح، الهجاء، الفخر، الوصف، الرثاء

ملخص البحث:

تهدف هذه الورقة العلمية إلى إبراز جهود الدكتور محمد تقي الدين الهلالي في الشعر العربي، وكان ممن لهم دور ريادي في مجال اللغة العربية، وعلماً من أعلامها البارزين، وقد

*الباحث في الجامعة الملية الإسلامية، نيو دلهي، الهند

قضى حياته كلّها في تطوير اللغة العربية في البلاد المختلفة، وقرض أشعاراً كثيرة في الموضوعات المختلفة في المناسبات المختلفة عبّر فيها عن الأحداث المتنوعة، والوقائع المختلفة، والتوجيهات المهمّة، والإرشادات النافعة، والحِكَم البليغة، والخِبرات المفيدة وغيرها.في هذه الورقة العلمية، سنتناول مختلف الموضوعات والأغراض في شعره مثل المدح، والهجاء، والفخر، والوصف، والرثاء، والشكوى والعتاب، والدعوة إلى الله، والاستعمار والحرية، وقضايا العالم الإسلامي وغيرها مع ذكر نموذجٍ لكل منها.

المدخل:

ليس بخاف على الباحثين من العلماء والمحققين أن الدكتور الهلالي – رحمه الله – من أشهر الكُتّاب في العصر الحديث، وكان متضلعاً من العلوم الشرعية من التفسير والحديث والفقه وغيرها، وبارعاً في العلوم العربية من النحو والصرف والبلاغة والعروض والقافية، كما كان شاعراً تقليدياً ومُصلحاً يمتاز شعره بصدق الإحساس والعاطفة وعمق الشعور والخيال، والتفنن بين الإبداع والتقليد، والإحاطة بظروف بيئته وحوادثه وغيرها. وكذلك يمتاز شعره بالعروض والموسيقى اللذان يُحدثان الجرس والنغم في الشعر، ويزيدان العبارة حسناً وجمالاً وتأثيراً.

نرى من المناسب أن نذكر أولاً ترجمة موجزة للهلالي، ثم نتحدث عن أهم الموضوعات والأغراض التي تناولها الشاعر في ديوانه.

أولاً: حياته:

ولد محمد تقي الدين الهلالي سنة 1311هـ الموافق 1893م بقرية "الفرخ" [1] وتسمّى أيضاً بـ "الغيضة القديمة" على بضعة أميال من الريصاني، وهي من بوادي مدينة

[1]. العقيل، عبد الله، من أعلام الدعوة والحركة الإسلامية المعاصرة، دار البشير. ص:811.

"سجلماسة" المعروفة اليوم بـ "تافيلالت" الواقعة جنوباً بالمملكة المغربية [2]، وقد نشأ في بيت كريم حيث كان والده الكريم عالماً، وقرأ القرآن عليه وحَفِظه، ودرس على شيوخ بلدته، ثم سافر إلى الجزائر، واستمر متعلماً في مدرسة الشيخ محمد حبيب الله الشنقيطي لمدة سبع سنين، ثم رجع إلى المغرب، وتلقّى بعض الدروس على العلماء في مدينة فاس، وحصل على شهادة من جامع القرويين [3]، وبعد ذلك سافر إلى مصر سنة 1340هـ = 1922م، وحضر بعض دروس القسم العالي بالأزهر، ثم توجّه إلى الهند بعد أداء الحج ، والتقى بعلمائها، وأخذ العلم والإجازة من المحدث العلامة الشيخ محمد عبدالرحمن بن عبدالرحيم المباركفوري صاحب "تحفة الأحوذي شرح جامع الترمذي"، والشيخ محمد بن حسين بن محسن الأنصاري اليماني نزيل الهند آنذاك [4]، ومن الهند توجّه إلى العراق سنة 1342هـ = 1923م، واستفاد من علمائهم، ومكث نحو ثلاث سنوات، ثم سافر إلى مكة، ومكث في ضيافة الملك عبد العزيز بضعة أشهر إلى أن تمّ تعينه مراقباً للتدريس في المسجد النبوي والمسجد الحرام لمدة ثلاث سنين، ثم توجّه إلى الهند مرة أخرى سنة 1930م، وانخرط في سلك التدريس في دار العلوم ندوة العلماء في لكناؤ بالهند، وعُيّن رئيس قسم الأدب العربي حيث بقي ثلاث سنوات [5] ثم عاد إلى البصرة وأقام مدة، ثم سافر إلى ألمانيا، وعمل طالباً ومحاضراً في جامعة "بون" حتى أكمل مرحلة الماجستير، ثم

[2]. محمد المجذوب، علماء ومفكرون عرفتهم، دار الشواف للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة الرابعة: 1992م، 1 /193.

[3]. العقيل، عبد الله، من أعلام الدعوة والحركة الإسلامية المعاصرة، ص:812.

[4]. الهلالي، تقي الدين، الدعوة إلى الله في أقطار مختلفة، دار الطباعة الحديثة، الدار البيضاء، المغرب. ص: 137-142.

[5]. العقيل، عبد الله: من أعلام الدعوة والحركة الإسلامية المعاصرة، ص:812-813.

التحق بمرحلة الدكتوراه سنة 1940م، وقدّم رسالته الجامعية في جامعة "برلين" على موضوع "ترجمة مقدمة كتاب الجماهر من الجواهر مع تعليقات عليها" [6] التي فنّد فيها مزاعم المستشرقين، وكان مجلس الامتحان والمناقشة قد وافقوا بالإجماع على منحه شهادة الدكتوراة، ثم سافر إلى العراق، وقضى نحو اثنتي عشر سنة في التدريس بالجامعة الملكة عالية ببغداد كأستاذ، ثم غادرها إلى المغرب سنة 1959م، وعمل أستاذاً في كلية الآداب بجامعة محمد الخامس، وبعد ذلك تمّ تعينه كأستاذ في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، وقضى ست سنوات من سنة 1968م إلى 1974م [7]، ثمّ عاد إلى موطنه الحنين المغرب، وتفرّغ للدعوة إلى الله بأشكالها المختلفة حتى وافته المنية في منزله بالدار البيضاء بالمغرب يوم الأثنين في 25 شوال سنة 1407هـ الموافق 22 يونيو 1987م [8].

وله مؤلفات تزيد أربعين ما بين كتب وكتيبات ورسائل بالإضافة إلى ما قام به من ترجمة الكتب والحواشي، وله أيضاً كثير من المقالات والبحوث المنشورة في الجرائد المختلفة والمجلات العديدة في البلاد العربية والهند وغيرها.

ثانياً: شعره:

نذكر في هذا المبحث ما قاله الهلالي من الشعر والنظم في مناسبات مختلفة، وإذا نظرنا في الديوان وجدنا أنه – كغيره من الشعراء — قرض الشعر حول موضوعات مختلفة وأغراض متعددة تناولتْ مختلف الفنون الشعرية من مدح، وهجاء، وغزل، وفخر، ووصف، ورثاء، ووصف، والدعوة إلى الله، والحنين إلى الوطن وغيرها، وسنذكرها فيما يأتي بشيء من التفصيل والتوضيح.

6. المصدر نفسه.

7. الدعوة إلى الله في أقطار مختلفة، ص:214.

8. الهلالي، تقي الدين، سبيل الرشاد في هدي خير العباد، تحقيق: أبو عبيدة مشهور حسن آل سلمان، الدار الأثرية، الأردن، الطبعة الأولى: ١٤٢٧هـ – ٢٠٠٦م. 104/1.

المدح:

المدح من الأغراض الشعرية القديمة التي تناولها الشعراء الجاهليون في قصائدهم، وأشهرهم شعراء المعلّقات الذين خلّدوا أسماء ممدوحيهم من الملوك والأمراء والأحبّاء وغيرهم بأشعارهم البليغة؛ لأن الشاعر متى يعجب بشخصية الممدوح، أو يتأثر به؛ فيسبق إلى وصف فضائله وأخلاقه وصفاته وأعماله، وبيان جُوده وسخائه وكرمه يقرض الشعر تعظيماً وتخليداً له، ويسعى أن يصف ممدوحه وصفاً جميلاً، ويثني عليه ثناء حسناً، ويمدحه بصفات تميّزه عن غيره وتجعله قدوة يُقتدى به، وكل شاعر يريد أن يستخدم في ذلك تشبيهات نادرة واستعارات بليغة وكنايات بديعة التي تؤثر في نفس ممدوحه تأثيراً وانفعالاً، وتملأ صدره سروراً وبهجة؛ فيسبق إلى إعطائه الجوائز والمكافآت إكراماً وتعظيماً له؛ ليواصل الشاعر شعره في مدحه، ويستمر في ثنائه، ويفتخر بعلاقته به بدون لومة لائم.

وإذا تأملنا في القصائد المدحية للهلالي وجدنا أن معاييرها عنده كانت عالية جداً، وضوابطها دقيقة، وكان مدحه عبارة عن الصدق، وهو لا يمدح إلا من يستحقه ويؤثّر بأخلاقه وأعماله، وإذا مدحه فكان لا يسرف ولا يبالغ في المدح، ويجتنب عن الكذب والفحش ولا يذكر ما لا يوجد فيه من الصفات والأفعال، ولا يطلب منه الأجر والصلة، ولا يأخذ عليه جائزة ولا هدية كما وصف نفسه. [9]

وقد مدح كثيراً من أساتذته، وتلاميذه، والملوك، والأمراء، والمعاصرين من أهل العلم والفضل، وأعيان القوم، والشيوخ، والمحسنين، والمجاهدين، والمصلحين، وأهالي موصل وشفشاون والشلالة وغيرهم، ومدح من أساتذته الشيخَ محمد سيدي بن حبيب الله، والشيخ أحمد سكيرج، والشيخ الفاطمي الشرادي، والشيخ محمد بن العربي العلوي والمحدث

[9]. الهلالي، تقي الدين، منحة الكبير المتعالي، تحقيق وتعليق: أبو عبيدة مشهور، الدار الأثرية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى: 2010م، ص: 60.

عبد الرحمن المباركفوري وغيرهم.

وقد قال الهلالي قصيدة تأريخية في تقريظ كتاب "تحفة الأحوذي شرح جامع الترمذي" لما أخبره الشارح – رحمه الله – بإرادته الشروع في طبع الجزء الأول من الشرح المذكور في شهر ربيع الآخر 1343هـ، فنشرها الشارح في آخر الجزء الرابع من الطبعة الهندية [10].

وقد بدأ القصيدة بحمد الله تعالى والشكر على آلائه، ثم ذكر أن النبي صلى الله عليه وسلم بُعث نبياً ورسولاً؛ فقام يدعو إلى الله تعالى بالبصيرة والحكمة، وتحمّل الشدائد التي لقيها من الكفار والمشركين، ثم عدّد الشاعر خصائص وميزات هذا الشرح العظيم وأثنى عليه ثناء كثيراً؛ لأنه حافل بالفوائد العلمية والاستنباطات المفيدة فقال:

بشـــــرى لنا يا معشر الإخـوان ذي نعمة جاءت من الرحمن

ذي تحـــفة للأحـــوذي ومنحـــة للألمـــعي الطالـــب العـــــرفان

شرح به انشرحت صدور أولي النهى وبه المحـــدث نال كل أمـــاني

شرح يحلّ المشكلات بجـــــامع للترمـــــذي العـــــا لم الرباني

شرح عـلا فوق الشروح بحكمة وبغـــاية التحقيق والإتقـــان

[10]. انظر: تحفة الأحوذي شرح جامع الترمذي للمباركفوري، جيد برقي بريس، الطبعة الأولى، 1353هـ، ص: 404.

ثم ذكر عن أستاذه المحدث عبد الرحمن المباركفوري ومدحه مدحاً جميلاً فقال:

الحـــافظ الثقـــة الإمام المهتدي من صيته قد طار في الأوطان

ورث المكارم عن أبيه المـــرتضى عبد الرحيم محـقّق القـــرآن

وغـــدا ســـراجاً للهداية في مبا ركبور بل في ســـــائر البلدان

لله مـــا أبداه هذا الحـــبر مـــن بهرت معـــارفه ذوي العرفان

فلقد أتى في شرحـــــــه بفـــرائد درر تفـــوق قلائد العـــقيان [11]

وختم القصيدة تائباً ومستغفراً الله تعالى؛ لأنه هو الغفور الرحيم، وسائلاً منه بتفريج كُربه وآلامه؛ لأنه دافع البليّات وكاشف الكروب. وهي مشتملة على خمس وستين بيتاً.

الهجاء:

هو فن شعري يقصد فيه الشاعر إهانة المهجو والإزراء به، ويعيب قِيَمه وأخلاقه، ويكشف عن عيوبه ونقائصه. وهذا فن قديم تناوله الشعراء الجاهليون ومن بعدهم، وقدّموا نماذج مختلفة للقصائد الهجوية في إهانة الرجل وتحقيره وذمّه، ولكل شاعر أسلوب ومنهج يختاره في قرض الشعر والقصيدة.

[11]. منحة الكبير المتعالي، ص: 573–574.

والهلالي يختلف عن الشعراء الآخرين في الهجاء من حيث إنه لم يسلك الطريقة المتداولة التي تعوّد عليها عامة الشعراء من هجوهم للملوك والخلفاء والأمراء والوزراء وذوي الأعيان وغيرهم إذ لم يجدوا منهم صلة وجائزة لقصائدهم المدحية التي مدحوهم فيها، أو لم يحصلوا على المناصب والوظائف المناسبة، أو لم ينالوا ما يستحقوه من العناية والمكانة، أو لم يتمّ لهم غرض من أغراضهم المختلفة، أو لم يرضوا عن أخلاقهم وعاداتهم فهجوهم هجاء مرّاً، ونقدوهم نقداً لاذعاً، ولا نجد هذه الصور في قصائد الهلالي بل اجتنب عن هذه الأمور كلها؛ لأنه لم يكن من زمرة هؤلاء الشعراء المذكورين.

وإذا تأمّلنا في قصائده الهجوية وجدنا أنه يهجو المشركين، والمتصوفين، وعبّاد القبور، والمبتدعين، والمقلّدين، والمفسدين في الأرض، والفقهاء، والقضاة، والأمراء، والمسؤولين، والمستعمرين ومن تعامل معهم، والواقفين في طريقه في الدعوة إلى الله وغيرهم. ولم يقتصر على هجو هؤلاء المذكورين، بل تعدّى إلى غيرهم، فهجا من عامل معه معاملة سيئة وأخلّ بسكينته وأقلق راحته، كما هجا أهل فندق في مكة في موسم الحج وهجا أهل مطعم وغيرهم. وكذلك هجا بعض الدول المستعمِرة مثل "بريطانيا" و"فرنسا" و"إسبانيا" و"ألمانيا" وغيرها.

فنستطيع أن نقول إن أكثر أشعاره الهجائية عبارة عن الدفاع عن العقيدة الصحيحة والسنة النبوية، وبيان المذاهب الباطلة والآراء المنحرفة من المشركين والمبتدعين وغيرهم، وإصلاح الفقهاء والقضاة والملوك والأمراء والمسؤولين وغيرهم في الأمور الشرعية، وهديهم إلى ما فيه خير وفلاح للإسلام والمسلمين.

ونذكر هنا بعض الأشعار من آخر قصيدة "القينة الأولى" هجا فيها فقيهاً، وبيّن أهمية العلم والتوحيد، وحذّر عن الشرك والتقليد مع ذكر بعض صفاته المذمومة وعاداته القبيحة فقال:

وإنك وأيم الله أحمــق من مشى على الأرض طرّاً في تهوم وأنجد

فخذها غذيت التبن منى قصيدة تزدك جنوناً مثلها لـــم يقصّد

فتخرج في الأســواق ناتف لحية ولاطــم خــدّ عارياً غير مـــــرتد

ولم يكُ قصدي ذكر عيبك كله فذلك لا يحصيه ألف مجـــلّد [12]

الغزل:

الغزل فن شعري قديم وغرض من أغراضه المعروفة، وهو التشبب بالفتيات واللهو معهن ووصفها عبر جمالها ومحاسنها. يهدف الشاعر فيه إلى وصف حبيبته ومدحه، وإظهار الشوق إلى لقائها، والألم من فراقها، والوقوف على الأطلال والبكاء عليها وغير ذلك من التعبيرات والمفاهيم التي تدلّ على هذا المعنى.

وإذا نظرنا في الديوان وجدنا أن الهلالي جعل الأشعار الغزلية مقدمة لكثير من قصائده، مقتدياً في ذلك بالشعراء القدامى، وكذلك قرض بعض القصائد الغزلية الموجزة. ولا نجد قصائد غزلية طويلة سوى قصيدة "الحب العذري" التي قالها في معارضة قصيدة ابن زيدون النونية [13]، وهي من أجود ما قاله، وتشتمل على اثنين وخمسين بيتاً.

وإذا تأملنا في أشعاره الغزلية وجدنا أنها كلّها في الغزل العذري والغزل العفيف، لا يتعزل مع الفتيات والنساء، ولا يذكر اسم الحبية صراحة، ولا يُظهر محبته لها، ولا يصف

[12]. المصدر السابق، ص: 282.

[13]. انظر: المصدر السابق، ص: 596.

جسدها وجمالها، ولا يشبّهها بشيء من التشبيهات المعروفة، ولا يذكر الفحش والمنكرات، بل يراعي فيها العاطفة الصادقة والعفة التي تتميّز عن الغزل الفاحش.

نذكر هنا قصيدة غزلية قالها في جارية وفتنة حسنها:

وجـارية قـــد صـــاغها الله فتنة من الحسن تلقي في الهوى كل من نظر

متى أقبلت فالناس تلحـظ وجهها وإن أدبرت فالكل يتبـــعها النظر

جميع معاني الحسن فيها تجمعت فتم بذا فيها على الناظـر الخطـر

على أنها قـد قلّ في المـال حـظها فصارت بذا من خـدمة ما لها مفر

فتغسل أثواباً وتكنس غـــــرفة وتعمـل أعمالاً لدى الناس تحتقر

فيا عجباً للشمس تخـدم أنجماً وتخـدم أحجاراً كثيراً مـن البشر [14]

بيّن الشاعر في هذه القصيدة الموجزة حسنَ الجارية وجمالها، وهي كاملة في حسنها، ولكنها قليلة المال؛ فتقوم بغسل الأثواب وكنس الغرفة وأعمال أخرى يحتقرها الناس، ولكنها تقوم بها لمن دونه في الحسن والجمال، وهي شمس تشرق بها النجوم.

والقصيدة في لغة سهلة تنمو فيها العاطفة الصادقة، وليس فيها وصف جسدي

[14]. المصدر السابق، ص: 361–362.

للجارية ولا فيها عنصر للشهوة والهيام، بل صدقَ في كلّ ما قاله فيها مجتنباً عن الفحش والمنكرات وما يتعلّق بها.

الفخر:

الفخر فن من الفنون الشعرية وغرض من الأغراض المعروفة، يذكر الشاعر فيه الصفات الحسنة والفضائل الحميدة التي يتحلّى بها هو أو قبيلته ويفتخر بها. والشاعر عامة يفتخر بشرف النسب، والشجاعة، والقوّة، والكرم، والجود، والوفاء، وحماية الجار والنزيل وغيرها.

وإذا أمعنا النظر في قصائد الهلالي المختلفة وجدنا أنه لا يقرض الشعر والنظم في الفخر والتفاخر بالآباء والنسب والقبيلة والصفات الطيبة والأعمال الحسنة وغيرها بل يجتنب عن هذه الأمور اجتناباً كلياً، ويعدّها مخالفة للشريعة ويوصي الآخرين باجتنابها كما قال قصيدة فيمن يفتخر بالنسب، وردّ فيها على من يفتخر به، ونصحه بالاجتناب عن هذا؛ لأنه مخالف لتعليمات الإسلام فقال:

صـــدفت عـــن أمـــــــر النبي لســـــت إذن مـــــــن أهلـــه

لـــــو صـــــــــحّ أن تُنمى لـــه دون اقتفـــــــــــاء قـــــوله

لمـــــــــــا نفى الله ابن نـــــــو ح مـــــــــع سمـــــــــوّ أصله

فـــــــخر امـــــــــــرئ بنسب آيـــــة فقـــــــــــد عـــقله

ودينـــــه وعـلمـــــــــــــــــه

وفضـــــــــــــــــله ونبـــــــــــــــله [15]

فظهر من هذا المثال أن الهلالي لا يفتخر بالنسب والقبيلة والجود والكرم وغيرها من الأعمال مثل الشعراء الآخرين بل يمنع الناس أن يفعلوه؛ لأنه مخالف للشريعة الإسلامية، والنبي صلى الله عليه وسلم منع الأمة من هذا الفعل القبيح، ومن خالفه فليس منه.

الوصف:

الوصف فن من فنون الشعر وغرض من أغراضه المعروفة، يصوّر الشعراء فيه عشيقاتهم وحبيباتهم ومطاياهن كما يصفون مناظر الطبيعة والجمال ويستمدون منها موضوعاتهم ويصوّرونها في صور بديعة، ويسعون كل السعي أن يزيّنوا أشعارهم بالوصف الجميل.

والوصف فن لا ينفصل عن الفنون الشعرية الأخرى مثل المدح والهجاء والنسيب والرثاء وغيرها، ويتجلّى في صورة من صورها المختلفة؛ لأن الوصف عامة يكون في أكثر القصائد، والقصائد تكون مشتملة على الأغراض المختلفة، وفيها الوصف، وقد أشار إلى هذه النكتة أحمد بدوي فقال:

"أننا نستطيع أن نُدخِل جميع فنون الشعر تحت الوصف فالمدح وصف للممدوح، والهجاء وصف للمهجو، والنسيب وصف للحبية وللحب حيناً آخر والرثاء بفقيد عزيز" [16].

فاتضح من هذا القول إن الوصف يكون في كل من الفنون الشعرية؛ لأن الشعر نوع من الوصف، فالشاعر يصف الممدوح في المدح، ويهجو المهجو في الهجاء، ويصف

15. المصدر السابق، ص: 497.

16. أحمد بدوي، أسس النقد الأدبي عند العرب، دار نهضة مصر، ص: 62.

الحبية في النسيب، ويرثي الأقرباء والأصدقاء بوصف الميت وغيرها.

وإذا نظرنا في الديوان وجدنا أنه قرض قصائد مختلفة في هذا الفن، ووصف المناظر المختلفة والأشياء المتنوعة وصفاً جميلاً، ولم يصف الصحراء والناقة والأطلال والجمل وغيرها مثل الشعراء الجاهلين والآخرين بل وصف مناظر الطبيعة ومظاهرها والرحلات والمواسم والأطعمة والقصور، وكذلك وصف أموراً بسيطة لم يتناولها الشعراء عامة.

نذكر هنا ما قال في وصف قصرٍ في مدينة "الزبير" بالعراق، لتعرفوا عن منهجه في الوصف وتصويره للمناظر والأشياء. فقال:

أبا قاســـم إن القصور كـواكب وقصرك ذا من بينها مشرق بدر

ترى حوله من أخصر النبت شامة على وجـه صحـــرا مفاوزها غبر

إلى أثلاث كالعـــــوائس صفّت ذوائبها غـــلب وأفنانها خـــضر

ورافعـــة للمـــــــاء ترسل زفرة منظّمة قد ســال من دمعها نهر

تحـــاكي محباً قـــد جفاه حبيبه ففي عينه بحـــر وفي قلبه جمـر

فتوسعهـــم براً ولطفـــــاً ونائلاً ووجهك وضّاء به يطفـــح البشر [17]

وصف الهلالي القصر في هذه القصيدة، وأحسن في وصفه وصوّره تصويراً حسنة؛

[17]. منحة الكبير المتعالي، ص: 263.

فزاد الشعر حسناً وبلاغاً مع الإيقاع الذي ينشأ من القافية والوزن.

الرثاء:

الرثاء فن من الفنون الشعرية، وهو أصدق الأغراض من حيث الشعور والعاطفة والدقة، يذكر الشاعر فيه محاسن الميت ومناقبه النبيلة وخصاله الحميدة، ويعبّر عمّا يحمله من مشاعر الحزن والأسى على الفقيد. وله ثلاثة أقسام: الندب، والتأبين، والعزاء.

وإذا أمعنا النظر في الديوان وجدنا أنه لم يقل في هذا الفن بكثرة ما قاله في الفنون الشعرية الأخرى، وأما ما قاله في الرثاء فهو قليل؛ ولكنه بليغ ومؤثر خرج من الشعور الصادق والعاطفة الصادقة، وبعيد عن التكلّف والتصنّع والمجاملة بل صدق في الصفات والخصائل والمحاسن.

ونذكر فيما يأتي قصيدة قالها الشاعر في رثاء الأمير شكيب أرسلان، وقد نظمها في السجن لما بلغ نعي وفاته، فنظم بيتاً بيتاً، ولما أُطلِق سراحُه وخرج من السجن فقيّدَ ما نظمه بالكتابة وأنشدها يوم التأبين لذكرى الأمير في احتفال أقامه الأستاذ الزعيم عبد الخالق الطريس في داره. وعبّر الشاعر بها عما ألمّ به من الحزن والغم على وفاة صديقه الحميم. والقصيدة مشتملة على ثلاثين بيتاً، ومما قال في آخر القصيدة:

(وليس شكيب هلكه هلك واحد ولكن) تداعى صرح قومي الأكارم

سيبكي عليه العلم والحلم والندى ونصرٌ لمظلـــوم وكبح لظالـــــم

ويبكي عليه النبل والطُهـر والإبا بكاء الثكالى في جمـــوع المـــآتم

ويبكي عليه غـــــــيرة مضـــرية كما ناحت الورقاء بين

الحمائم

عليه مـــن الرحمـن في كل لحظة سحائب رضـــــوان كثير ودائـــم [18]

وإذا تأمّلنا في هذه الأشعار وجدنا أن الشاعر لم يسلك الطريقة التي تعوّد عليها الشعراء في رثائهم للملوك، والخلفاء، والأمراء، والأصدقاء، وذوي منزلة في العشيرة والمجتمع وغيرهم من مبالغتهم في مدحهم، وغلوهم في ذكر مناقبهم وفضائلهم، واستخدامهم لهم صفات لا تليق بشخصيتهم، واجتنابهم عن صدق القول فيهم، ولكن الهلالي لم يفعل هذا بل ذكر في أمير البيان شكيب أرسلان من الفضائل والصفات ما يستحقه مجتنباً عن المبالغة والاطراء في ذلك، ورثاؤه ليست فيه نياحة ولا نشيج بل ذكرٌ لمناقبه وصفاته، وإشادة بشخصيته، وكل ما يقول فهو يخرج من صدق العاطفة والتجربة.

الشكوى والعتاب:

هذا غرض من الأغراض القديمة تناوله الشعراء في أشعارهم، وأدلوا دلوهم في هذا الدلاء، وتحدّثوا عنه في دواوينهم، وعبّروا عن مشاعرهم فيها. وجرياً على هذا الطريق ساهم الهلالي في هذا الفن الشعري، وشكا ما لم يرضَه عن الأصحاب والمحبين من الأخلاق والعادات في شعره، وعاتب عديداً من الرجال على معاملتهم السيئة من التلاعب بالشريعة الإسلامية والاستهزاء بها، وتركِ العمل بالكتاب والسنة، والتقليد الجامد، وعدم الوفاء من المتعاملين معه، كما تكلّم عن الموضوعات المختلفة مثل شكايته طول الليل في المرض، وغربة الدين، وحالته الشخصية وما ألمّ به من الوجد والأسى وغير ذلك.

نجد أشعار الشكوى والعتاب ممزوجة تارة بالمدح وتارة بالهجاء، وتارة بالوصف،

[18]. المصدر السابق، ص: 537-540.

وتارة بالابتهال كما تكون أيضاً في الفنون الشعرية الأخرى.

نذكر هنا بعض الأشعار من القصيدة الجميلة التي قالها في عتاب المشيب والشباب، وهي مشتملة على تسعة وثلاثين بيتاً، ومنها:

أرى ضبع المشيب طغى وجارا وصيّر هامتي السودا وجارا

طلائعه بدت وأنا ابن عشرين في صدغيّ تنتشر انتشارا

كأن الشيب جيش من فرنج على السودان عدواناً أغارا

أو الفجر المبين بدا مهيباً بليل فاختفى منه وطارا

ولمّا ابيض فودي اسود قلبي ووصل الغانيات غدا ازورارا

فإن سواد رأسي حلّ قلبي فجلّله من الأحزان قارا

متى أخبرت إنساناً بسنّي وأبصر جانبي رأسي تمارى [19]

قد صوّر الهلالي في هذه الأشعار أن رأسه اشتعل شيباً وعمره لم يتجاوز إلا عشرين سنة، وشبّه البياض في الشعر بالجيش الفرنجي الذي أغار على السودان، وبالفجر

[19]. المصدر السابق، ص: 333.

المبين الذي يبدو في الليل؛ لأن هذه الحالة إذا يُفكّر فيها الشاعر تُحزنُه، وإذا يخبر إنساناً عن عمره وهو يبصر جانبَيْ رأسِه فيقع في الشك والارتياب.

الدعوة إلى التمسك بالكتاب والسنة، والتوحيد، ونبذ الشرك والتقليد:

ومن أهم الموضوعات التي تحدّث الهلالي عنها كثيراً في ديوانه هو موضوع "الدعوة إلى التمسك بالكتاب والسنة، والتوحيد الصحيح، ونبذ الشرك والتقليد"، وقد دعا الناس في أشعاره إلى التمسك بالكتاب والسنة والعمل بهما، ونبذِ كلّ ما يخالف الشريعة الإسلامية من البدع والمحدثات والمنكرات، وقضى حياته الثمينة في نشر العقيدة الصحيحة والتحذير عما يخالف الدينَ والعقيدة؛ لأن التوحيد مطلوب من كل عبد؛ ليكون إيمانه خالصاً لوجه الله تعالى، وعمله موافقاً للكتاب والسنة.

وقد قال الهلالي أشعاراً كثيرة حول هذا الموضوع، نذكر بعضاً منها على سبيل المثال، فقال في الرجوع إلى كتاب الله تعالى والعمل به؛ لأن الله تعالى بيّن في القرآن كل ما يَصْلُح للبشرية جمعاء، وجعله مصدراً لهدايتهم، فقال:

فـــلا تحسبن الله يغـــفل عنكم تعـالى عن الإهـــمال والغفلات

ألـــم تسمعـوا إيعـــاده في كتابه لمـــن لا يزيل النكـــر باللـــعنات

بلى قد سمعتم وعـــده ووعيده ولكنكم ساهـــون في الغمـــرات

أغـــرّكـــم إمهـــــاله فطـــغيتم وصـارت قلوب منكم صـخرات

أفيقوا أفيقوا ويحكم قد هلكتـم وإن الـــذي قـــد

توعـــدون لآت

ولا يأتكـــم عـــما قـــريب تـرونها سراباً ولا يبقى ســـوى الحسـرات

أفيقوا أفيقوا ويحكم قد بليتم ولا يفتنـكم زخـــرف الشهوات

فتوبوا إلى الرب الغفور وأصلحوا وأوبوا لنهج الـرشد قبل فـــوت [20]

وإذا تأملنا في هذه الأبيات وجدنا أن هذه المعاني كلها مقتبسة من القرآن الكريم، والقرآن الكريم بيّنها في عديد من الآيات في مواضع مختلفة، فالشاعر أوصى الناسَ بالإنابة والتوبة إلى الله، إنه هو الغفور الرحيم.

أما السنة فقد دعا الشاعر إلى الالتزام والتمسك بها في أشعار مختلفة، ومنها قصيدته التي قالها في الترحيب بإنشاء دار الحديث، وفي منشئها الملك الحسن الثاني تقديراً للجهود التي بذلها، ومنها:

ومـــن يقرأ القرآن من غير سنة يضلّ ويلقَ في عـــواقبه خُسرا

فتفسير قول الله هـــدى رسوله وذلك في القـــرآن متضح يُقرا [21]

وقد أشار الشاعر في هذه الأبيات إلى أن السنة النبوية تفسير وتأويل للقرآن الكريم كما ذكره الله تعالى في القرآن الكريم، ولا يستغنى عنها أحد؛ لأن الله تعالى أوجب

[20]. المصدر السابق، ص: 222.

[21]. المصدر السابق، ص: 381.

على الأمة اتباعها كما أوجب عليها اتباع القرآن الكريم إجمالاً وتفصيلاً.

الاستعمار والحرية والاستقلال:

تكلّم الشاعر كثيراً عن هذه الموضوعات في شعره ونظمه كما تكلّم عنها في مقالاته وبحوثه، وتحدّث عن سياسة الدول المستعمِرة من بريطانيا وفرنسا وإيطاليا وألمانيا وغيرها إجمالاً وتفصيلاً حسب ما تقتضيه الحاجة، وكشف عن سياستهم الخبيثة ودسائسهم العامة، وأوضح حِيَلَهم وتلبيساتهم، وبرهن على نهبهم وظلمهم، وسعى أن يَرْدَعهم عن هذه الأفعال القبيحة، ويخرجوا عن الأراضي المستعمَرة؛ ليكون أهلها آمنين مطمئنين غير مظلومين في أوطانهم.

وقد ذكر الشاعر الحرية والاستقلال مقروناً بالاستعمار والاحتلال، ودعا الأمة والمواطنين إلى محاربتهم وطردهم عن الأراضي المستعمَرة، وقال في ذلك أشعاراً إصلاحية توجيهية يحثّ المواطنين على نيل الحرية والاستقلال؛ ليتمتعوا بهاتين النعمتين العظيمتين، ويشيد بجهود ومساعي أحزاب سياسية مناضلة في ذلك، ويهجو العملاء للاستعمار والخائنين الذين يخونون المواطنين والبلاد.

ومن القصائد التي اشتهرت في هجو الاستعمار وذمّ الاحتلال قصيدة "أعادي فرنسا"، وشقّت هذه القصيدة على الدول المستعمِرة مثل فرنسا وبريطانيا وألمانيا وغيرها، وقد بيّن الشاعر فيها كل النقائص والعيوب التي توجد في الاستعمار والاحتلال، وهو مشتملة على مائة واثنين بيتاً (122) ومن مقدمتها:

أعـــادي فرنسا ما حييت فإن أمت سأوصي أحبائي يعــادونها بعــدي

عـــــداوتها فـــرض على كل مسلم وإن كان في أرض القراغز والصُغد

عـــداوتها حـــتم على كل فاضـــــل سوى ذي فؤاد صار كالحجر الصلد

لعمـــــري لقد أشقَت شعوباً كثيرة وألقتهم في هـــــوّة البؤس والجـهد

بها النحس مقـــرون فمن علقت به مخـــــالبها فهو امـــــرؤ عاثر الجد

فلا دينه يبقى ولا العيش ناعـــــــم ولا العرض موفور ولا حلمه يجدي

فـــــــــويل لهم منها فتاة قـــــــوية وويل لهـــم منهـا عجوزاً على الضد

وويل لهـــم منها بعـــــــــهد (بَلَومَها) وفي عهـــــد (بيتان) فقبّح من عهـــد

وفي عهـــــد (ديكول) تكاثر بؤسهـــم وأضحت رزاياهـــم تزيد على العـــدّ

فهـــم مثل أسنان الحمـــار فلم يَبِن لواحـــدهم فضـل على غيره عندي (22)

يقول الشاعر في هذه الأشعار إني أعادي فرنسة وأوصي كل محبّ ومسلم أن يعاديها؛ لأنها مقرونة بالنحس وأوقعت أمماً كثيرة في الشقاء والذل، ليس الدين والعرض والعزة والعيش فيها سالماً، والعهود المختلفة للملوك والرؤساء المختلفة سواء لا فضل لأحد على غيره.

قضايا العالم الإسلامي:

[22]. المصدر السابق، ص: 283.

يواجه العالم الإسلامي قضايا مختلفة ومشاكل متنوعة في هذا العصر، ومن أهمّها قضية قدس أو قضية فلسطين التي لا تزال في انتظار من يجاهد الإسرائيليين الغاصبين، ويطردهم من الأرض الفلسطينية ويحرّر البلاد والمسجد الأقصى من قبضة الصهاينة الغاصبين ويدمّر مخطّطاتهم الخبيثة. وقد أدان الشاعر بريطانيا في هذا الأمر وصرّح أنها باعتها وأسكنت الصهاينة فيها، ولهذا كان لا يزال ينتقد عليها لمعاملتها مع أهل فلسطين، ويردّ عليها في كتاباته نظماً ونثراً، ونذكر هنا بعض الأشعار المتعلقة بالقضية الفلسطينية من قصيدة "ما أصاب المسلمين والعرب من نكبات" وهي مشتملة على اثنين وأربعين بيتاً.

قال الشاعر:

دع البكاء فمـــا يجدي البكاء وقُـــمْ لأخـــذ ثار العـــلى من ظالـــم غدرا

تردي البريطاني الغـــــــاوي وشيعته مـــن كل مستعمر في أرضنا مكـــرا

أبعـــــد خـــــزي جـــناه اللَندَني على بلاد قدس يجيء اليوم مستسحرا

عليه مـــن قبل أن يبدي مناخـــــره ذكرُ المخازي التي في القدس قد سطرا

دمـــاء خلق من العرب الكرام غدت مسفوحـــة دون ذنب منهم ظهـــرا

تستمطر الدمع من كل العيون وتسـتبكي نجـوم الدجى والشمس والقمرا

يبكي لهـــــا كل مـــــن في قلبه أثـــــر من رحمة وعلى الإنصاف قـــد فطرا

إلا عصـــــابة صهيُون وسفلة سكـــ سون فلم يرحموا من خبثهم بشرا

على الذي شك فيما قــد حكيته أن يأتي فلسطين حيث يبصـــر العبرا

يرى غـــرائب ظلم ليس يعـــــــرفها تأريخ ذي الأرض فيما قد مضى وجرى [23]

يخاطب الشاعر في هذه الأشعار المسلمين والعرب أن يَدَعوا البكاء والعويل ويقوموا لأخذ الثأر والانتقام من البريطاني الظالم المستعمر الذي جنى على الفلسطينيين وسعى لإهلاكهم وتدميرهم؛ لأنه ارتكب جرماً عظيماً وفعلاً قبيحاً استشهد به خلق كثير من العرب وسالت دمائهم من غير ذنب منهم، ويجري الدمع من كل العيون، ويبكي كل من في قلبه رحمة أو محبّ للإنصاف والعدل إلا الصهاينة والأراذل فلم يرجعوا عن ظلمهم وخبثهم، ومن شك فيما قاله الشاعر فليذهب إلى فلسطين ويشاهد الآيات ويبصر العبر.

الحنين إلى الوطن:

هذا الموضوع من الموضوعات المهمة التي تناولها الشعراء في شعرهم وتكلّموا عنها إجمالاً وتفصيلاً في قصائدهم، وذكروا فيه الغربة وآلامها، والاكتئابَ من التطواف والتجوال، والبعد عن الأرض والأهل والأقرباء في البلاد الأجنبية؛ لأن الإنسان بطبعه يشتاق ويحنّ إلى وطنه الذي ولد وترعرع فيه ونشأ في ظلاله، ومهما قضى من أيامه في الدول الأجنبية والبلدان النائية بعيداً عن الأهل والوطن فهو دائماً يشتاق إلى الوطن ويتمناه، ولكن ليس كل ما يتمناه المرء يدركه. وقد استخدم الشعراء في ذلك أنواعاً من

[23]. المصدر السابق، ص: 364.

التشبيه والاستعارة والكناية والمحسنات وغيرها.

وأما شاعرنا فقد قضى أكثر حياته بعيداً عن الأهل والوطن، وجاهد الاستعمار ودافع عن الوطن والبلاد، وأحسّ بآلام الغربة والبعد، وسئم من التطواف والتجوال، وحنّ إلى وطنه وبلاده، وقد ذكرها مراراً في أشعاره، وإليكم نماذج من قصيدة "سئمت طوافاً وغربة" التي قالها في الحنين إلى الوطن، ولم نجد منها إلا هذه الأبيات الأربعة.

قال الشاعر:

ألا ليت شعري هل إلى معهد الـــود خلاص من التطواف والنأي والبعد

فيرجـــــع مـــا أنأَته أيام بصـــــرة وأيامـــنا في أربُع السند والـــــهند

فقـــد سئمت نفسي طـــوافاً وغربة على جســـرة غلبـــاء أو هيكل نهـد

سليم الشوى يهديك قبل سؤالـــــهأفانين جـــرى فوق ما أنت مستهد (24)

ونجد مثل هذا الإحساس في قصيدة أخرى تسمّى بـ "حنين إلى الوطن" وصف فيها موطنَه وما فيها من المعالم والآثار وصفاً دقيقاً، وبيّن فيها الصفات المحمودة لأهل العلم والفضل والصفات المذمومة التي لا تناسبهم، وكذلك صوّر الغابات والمعادن والصحراء وغيرها تصويراً جميلاً، وشوّق إلى كلّ شيء تجذب إليه النفس، وذكَرَ غير ذلك أموراً شوّقته إلى الحنين للوطن والإقامة به.

[24]. المصدر السابق، ص: 267.

وكذلك تكلّم عن موضوعات مختلفة مثل فراق الأحبة والأصدقاء، والاستغفار والتوبة، والحكمة والدعاء والنصيحة، والصبر على المصائب والصعوبات، والاجتناب عن البدعة والشرك وغيرها.

وأما من ناحية الإيقاع والموسيقى فقد استخدم الشاعر إحدى عشرة بحراً في شعره، واستخدم منها البحر الطويل أكثر من البحور الأخرى، ثم البحر البسيط، ثم البحور الأخرى مثل الوافر والكامل والرجز والرمل والسريع والمنسرح والخفيف والمجتث والمتقارب، ولم يستخدم بعض البحور الأخرى مثل: المديد والهزج والمضارع والمقتضب والمتدارك، وكذلك أحدث بحراً جديداً سمّاه "الملحق"؛ لأنه ألحق بشعر العرب والمولّدين.

وكذلك اهتم بعلم القافية اهتماماً كبيراً مثل اهتمامه بالعروض، وقرض الشعر والنظم في ضوء قواعد هذا العلم، كما هو واضح من الديوان، وهذا يدل على قدرته ونبوغه في عِلْمَيْ العروض والقافية.

فجملة القول إنه اتضح ممّا ذكرناه أن الشاعر تنوعّت عنده الأغراض والموضوعات التي عبّر فيها عن الأحداث المتنوعة، والوقائع المختلفة، والتوجيهات المهمّة، والإرشادات النافعة، والحِكَم البليغة، والخِبرات المفيدة، وتكلّم عن قضايا الأمة ومشاكلها كما تكلّم عن الموضوعات الأخرى المتداولة في الشعر. ونستطيع أن نقول إنه شاعر كبير اهتمّ بالموضوعات المختلفة التي يغلب عليها الطابع الديني والأدب الإسلامي، كما تدلّ عليه أشعاره.

المصادر والمراجع

1– أحمد بدوي، أسس النقد الأدبي عند العرب، دار نهضة مصر.

2– العقيل، عبد الله، من أعلام الدعوة والحركة الإسلامية المعاصرة، دار البشير.

3– المجذوب، محمد، علماء ومفكرون عرفتهم، دار الشواف للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة الرابعة: 1992م.

4– المباركفوري، عبد الرحمن، تحفة الأحوذي شرح جامع الترمذي، جيد برقي بريس، الطبعة الأولى، 1353هـ.

5– الهلالي، تقي الدين، الدعوة إلى الله في أقطار مختلفة، دار الطباعة الحديثة، الدار البيضاء، المغرب.

6– الهلالي، تقي الدين، سبيل الرشاد في هدي خير العباد، تحقيق: أبو عبيدة مشهور حسن آل سلمان، الدار الأثرية، الأردن، الطبعة الأولى: ١٤٢٧هـ – ٢٠٠٦م.

7– الهلالي، تقي الدين، منحة الكبير المتعالي، تحقيق وتعليق: أبو عبيدة مشهور، الدار الأثرية، الأردن، الطبعة الأولى: 2010م.

This work is licensed under a Creative Commons Attribution-NonCommercial-ShareAlike 4.0 International (CC BY-NC-SA 4.0)